المحاضرة الثالثة: مقاصد علم أسباب الورود

أستاذ المادة: أ.د. جليل محسن وناس

مصادر المحاضرة: البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف، تأليف برهان الدين ابن حمزة الحُسيني الحنفي

علم أسباب ورود الحديث وتطبيقاته عند المحدثين تأليف طارق الأسعد

مقاصد علم أسباب الورود

إن حُسن فهم مراد الله تعالى ومراد رسوله – صلى الله عليه وسلم – من أعظم النعم التي يَمُنُّ اللهُ تعالى بها على مَنْ يشاءُ من عباده؛ فما أوتي أحد بعد الإيمان أفضلَ من الفهم عن الله وعن رسوله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد اكتملت شريعة الله سبحانه تعالى ببيان أصول الحلال والحرام بما جاء في نصوص القرآن والسنة كما قال تعالى: {اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي}[المائدة:٣]، ولكن هذه النصوص تقْصُر أفهامُ كثير من الناس عن فهم دلالاتها والأحكام المستنبطة منها، وعن وجه الدلالة فيها على هذه الأحكام. وتفاوُتُ الأمة في مراتب الفهم لهذه النصوص كبير جدًا بحيث لا يحصيه إلا الله تعالى، فلو كانت الأَفهامُ متساويةً لتساوت أقدام العلماء في العلم، ولما خَص سبحانُه سليمانَ بفهم القضية بين صاحب الحرث وأصحاب الغنم دون داود على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، مع أن الله تعالى قد أثنى ولكن التوفيق في الفهم كان {وكلاً آتينا حُكمًا وعلمًا}: عليهما بالعلم والحكمة، قال تعالى لأبي رضي الله عنه عمر في تلك القضية بخصوصها. وفي السياق نفسه قال لسليمان

رضي الله عنه في كتابه إليه: "الفهمَ الفهمَ فيما أدليَ إليك" موسى الأشعري

إلا فهمًا يعطيه الله رجلاً في القرآن" ..." :علي في (السنن الكبرى). وقال البيهقي رواه رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله علي في (صحيحه)، فبين البخاري رواه عليه وسلم لم يخص آل بيته ولا غيرهم، واستثنى موهبةً من الله تعالى وهي الفهم المعين على الإدراك واستنباط المعاني، حيث تحصل الزيادة على ما عند الناس بذلك الاعتبار.

اللهم فقهه في الدين " :فقال لعبد الله بن عباس وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم ، وثَمَّ فرقٌ بين الفقه والتأويل؛ فالفقه هو فهم المعنى المرادَ، والتأويل إدراكُ "وعلمه التأويل الحقيقة التي يؤول إليها المعنى، وليس كلُ من فقه في الدين كان عالمًا بالتأويل، فالعلم بالتأويل يختص به الراسخون في العلم.

رضي الله عنه، عن النبي أَبي مُوسى في (صحيحيهما) عن ومسلم البخاري وقد روى إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل " :صلى الله عليه وسلم أنه قال غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادِبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقَوا ورعَوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقِه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله رحمه الله تعالى في (مفتاح دار السعادة): "شبه صلى ابن القيم قال ."الذي أُرسلتُ به الله عليه و سلم العلمَ والهدى الذي جاء به بالغيث لِما يحْصُلُ بكلِ واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية ...، وشبَّه القلوبَ بالأراضي التي يقع عليها المطرُ لأنها المحلُ الذي يُمسك الماءَ فينبُتُ سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعي العلم فيثمرُ فيها ويزكو وتظهرُ بركتُه وثمرته، ثم قسَّم الناسَ إلى ثلاثة أقسام بحسب

قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حِكمه وفوائده؛ **أحدها:** أهل الحفظ والفهم الذين حفِظوه وعقَلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحِكم والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط، فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء، فهذا مَثَل الحفاظ الفقهاء أهلِ الرواية والدراية. **القسم الثاني:** أهل الحفظ الذين رُزقوا حفظه ونَقله وضَبطه ولم يرزقوا تفقهًا في معانيه ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحِكم والفوائد منه، فَهُمْ بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعي حروفه وإعرابه، ولم يرزق فيه فهمًا خاصًا عن الله ...، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به؛ هذا يشرب منه وهذا يسقي وهذا يزرع. فهؤلاء القِسمان هم السعداء. والأولون أرفعُ درجةً وأعلى قدرًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. القسم **الثالث:** الذين لا نصيب لهم منه، لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعانٌ لا تُنبتُ ولا تُمسك الماءَ، وهؤلاء هم الأشقياء.

فإذا كانت أسباب نزول القرآن مطلوبة لمن يفهمه أو يفسره، كانت أسبابُ ورود الحديث أشدّ طلبًا؛ ذلك أن القرآن بطبيعته عامّ وخالدُ، وليس من شأنه أن يعرِض للجزئيات والتفصيلات والآنيات إلا لتُؤخذ منها المبادئ والعبر. أما السنة فهي تعالج كثيرًا من المشكلات الموضعية والجزئية والآنية، وفيها من الخصوص والتفاصيل ما ليس في القرآن ... والنظرُ إلى السياق والملابسات والأسباب تساعد على سداد الفهم واستقامته لمن وفَّقه الله، ومن الأمثلة التي تبين أهمية العلم بأسباب ورود الأحاديث وأثره في الفهم الصحيح: قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" رواه مسلم. فهذا الحديث يتخذ منه بعض الناس تُكأةً للتهرب من أحكام الشريعة في المجالات الاقتصادية

والمدنية والسياسية ونحوها لأنها ـ كما زعموا ـ من شؤون دنيانا، ونحن أعلم بها، وقد وكلها الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا!! والوقوف على قصة هذا الحديث وسبب وروده يقطع الطريق على أولئك العلمانيين الكارهين للمشروع الإسلامي والرافضين الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية؛ فسبب ورود هذا الحديث هو قصة تأبير النخل، وإشارته عليه الصلاة والسلام عليهم برأي ظني يتعلق بالتأبير، وهو ليس من أهل الزراعة، وقد نشأ بواد غير ذي زرع، فظنه الأنصار وحيًا أو أمرًا دينيًا، فتركوا التأبير، فكان تأثيره سيئًا على الثمرة، فقال: إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذوني بالظن .. إلى أن قال: "أنتم أعلم "بأمور دنياكم" .. فهذه هي قصة الحديث.

ومما سبق يتبين لنا أهمية هذا العلم والفوائد المترتبة على العناية به في الوقوف على دلالات أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا، ولابد في إدراك أسباب النزول وأسباب الورود من الاعتماد على رواية الصحابي أو التابعي؛ فلا يحل القول في أسباب نزول آي الكتاب ورود أحاديث الرسول الكريم إلا بالرواية والسماع عمَّن شاهدوا التنزيل وعايشوا الوقائع والأحداث، ووقفوا على الأسباب؛ إذ لا مجال للعقل المجرد في الوقوف عليها. ولهذا كان لابد من جريان قوانين الرواية على ما يُروى من أسباب لنزول القرآن أو لورود الأحاديث، من جهة التوثيق للروايات، ومن جهة التأليف بين مُختَلِفِها بالطرق العلمية المعروفة لدى علماء الحديث.

وهنا ينبغي التنبه إلى أن الأمر الذي أخبر الصحابي أنه الباعث على نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ الحديث – هو الذي يُطلق عليه سبب الورود. أما ذكر الصحابي للحديث فيما بعد ليستدل به في مناسبة من المناسبات فانه لا يسمى سبب ورود وإنما يسمى "سبب ذِكر" ولا يعتبر سببًا للورود، وفرقٌ بين الأمرين.